يواصل هذا المقال استكشاف أنواع من الاستجابات البليغة في سياقات التواصل اليومي، مركزًا على الابتسامة والعبوس.
بيانات المقال: عبد اللطيف، عماد. (٢٠٢١). ابتسامات بليغة. مجلة الدوحة، عدد ١٦٣، مايو ٢٠٢١، ص٢٢-٢٣.

ابتسامات بليغة

مقاومة تفاوت السلطة، والصمود، والسخرية

د. عماد عبد اللطيف

ينخرط البشر كلّ يوم في أشكالٍ شتّى من التواصُل مع الآخرين، في البيت والعمل والشارع ووسائط التواصُل الاجتماعيّ وغيرها. خلالَ هذه التفاعلات يستعمل الفرد الكلمة ونبرة الصوت وحركة الجسد لنقل المعلومات إلى الآخرين، والتأثير في أفكارهم ومشاعرهم وتصرُّفاتهم. هذا المقال مخصَّص لعلامة مهمَّة من علامات التواصُل هي الابتسام. ويهدف إلى التعريف بوظيفة مهمَّة للابتسام في سياق التواصُل العمومي والشخصي، وهي مقاومة الخطابات التي تمارس تمييزاً أو قهراً أو تلاعباً أو كراهية أو غيرها. ويقترح المقال أن هذا النوع من الابتسام يُمكن أن نسمِّيه «ابتسامات بليغة»؛ لكونه يُنجز وظائف مغايرة للوظيفة الأساسيّة للابتسام، منها مقاومة تفاوت السلطة، والصمود، والسخرية.

تشارك علوم كثيرة في دراسة الابتسامة؛ فعلم الفسيولوجيا يدرس الأبعاد الجسمية للابتسامة، وما تُحدثه في الجسم من تحريك لعضلات الوجه أو إفراز هرمون الأندروفين المُرتبط بالشعور بالسعادة. أمّا علم النفس فيدرس أثر الابتسامة التي يُنتجها المرء أو يتلقّاها على حالته النفسيّة، وعلى إدراك الآخرين له، وما يخفيه وما يبديه من دواخله. كذلك يدرس علم طب الأسنان الابتسامة من زاوية كونها نافذةً على أسنان الفم، ويروِّج ممارسوه لابتساماتٍ مصنوعة، مثل ابتسامة هوليوود الساحرة. وفي حين يهتم علماء التاريخ بدراسة التباينات في الابتسام بين الأعراق المُختلفة عبر التاريخ، يُعنَى علماء التواصُل عبر الثقافات بدراسة أعراف الابتسامة وتقاليدها في الثقافات المُختلفة، وينشغل علماء التسويق وإدارة الأعمال بدراسة أثر الابتسامة على عمليات البيع والشراء، ويدرس علماء التصوير الفوتوغرافيّ الابتسامة من زاوية كيفية إنتاج الابتسامة في الصور الفوتوغرافيّة، وقيمتها.

يُنتِج الإنسانُ الابتسامةَ بشكلٍ عفويّ في حياته اليوميّة حين يكون في حالة فرح أو رضا أو طمأنينة، أو غيرها. فحين ينظر أحدنا إلى المرآة، ويعجبه ما يراه، يبتسم لنفسه ابتسامةً لا يراها سواه. هذا الاستعمال «الطبيعيّ» للابتسامة ليس هو المقصود في هذا المقال. فالابتسام العفويّ الذي يظهر على وجه المرء بفضل حالة شعوريّة خاصة يعيشها، يكون غير موجَّه للآخرين، ولا يهدف إلى التأثير في أحد، وبالتالي فهو لا يتضمَّن أيّة دلالة تواصلية مع الآخرين. على خلاف ذلك، يهتم هذا المقال بالابتسامة المُنتَجة في سياق التواصُل مع الآخرين، عندما تكون فعلاً إرادياً مقصوداً، سواء في الفضاءات الشخصيّة أو العموميّة، أثناء التواصُل الحي أو الافتراضيّ. في هذه الحالة، تقوم الابتسامة بوظائف عِدَّة سأركز على ثلاثٍ منها في هذا المقال:

الابتسام أداة لمقاومة تفاوت السلطة

تُصنَّف المُجتمعات العربيّة على أنها متفاوتة السلطة. ويعني ذلك أن هناك فجوة كبيرة بين مَنْ يمتلكون سلطة كبيرة مستمَدة من منصب أو نفوذ أو جاهٍ أو غِنى أو مكانة اجتماعيّة أو عراقة نسب ومَنْ لا يمتلكون سلطةً، أو يمتلكون سلطة محدودة، بسبب افتقادهم لمصادر السلطة السابقة كلّها أو أغلبها. يؤثِّر تفاوت السلطة في العلامات اللُّغويّة وغير اللُّغويّة التي يقوم بإنتاجها أفراد المُجتمع في سياقات التواصُل الحياتي. فسلوكيات مثل مستوى ارتفاع الصوت، والنظر في العين، وطريقة الوقوف أو الجلوس أثناء الكلام، ولهجة الكلام... إلخ، تحكمها اعتبارات السلطة قبل أي شيء آخر. فحين يتواصل عامل في مصنع مع مالكه، أو مواطن عادي مع ضابط كبير، على سبيل المثال، نتوقَّع أن يقوم العامل والمُواطن بعلامات تعكس وعيهما بفرق السلطة مع مَنْ يتحدَّثون إليهم. فيميل الرأس إلى الانخفاض، وتنخفض نبرة الصوت، وتقل الإشارات الحركية، وتُستبعَد المُقاطعة... إلخ.

إذا نظرنا إلى ثنائية الابتسام والتجهم فسوف نجد أن لهما دلالات مهمَّة في التواصُل بين أشخاص متفاوتي السلطة في المُجتمعات العربيّة. إذ يمكن ملاحظة أن التعبير عن تفاوت السلطة في التواصُل يظهر بواسطة علامات التجهم والابتسام. فغالباً ما يبتسم الأقلّ سلطة للأعلى سلطة في سياقات التواصُل، تعبيراً عن الوعي بتفاوت السلطة، في حين يُعبِّر ممتلكو السلطة -غالباً- عن وعيهم بتفاوتها بواسطة التجهم في وجه مَنْ هم أقلّ منهم سلطة، والابتسام لمَنْ هم أعلى منهم سلطة.

تكتسب ثنائية الابتسامة والتجهم أهمِّية من منظور الاستجابة البليغة، حين يُستعملان أداة لمقاومة المُمارسات السلطويّة في التواصُل بين الأشخاص. فالابتسامة تصبح ابتسامة بليغة حين يختار المرء أن يبتسم في وجه مَنْ هم أقلّ سلطة منه، لتقليص فجوة السلطة، وتأسيس تواصل إنسانيّ قائم على مبدأ المُساواة بين البشر، بغض النظر عن درجة السلطة التي يمتلكونها. كما يصبح التجهم استجابةً بليغة حين يستعمله المرءُ في تواصله مع مَنْ يظنون أن امتلاكهم للسلطة يعطيهم الحقّ في ممارسة تواصل سلطوي، فيتجهمون في وجوه مَنْ

هم أَقلّ منهم سلطة. ويصبح التجهم في مقابل التجهم وسيلة لترسيخ مساواة في التواصُل.
في المُقابل، يصبح الابتسام والتجهم استجاباتٍ غير بليغة حين نبتسم لخطاب المُتسلِّط، ونتجهم لخطاب الضعيف. فالابتسامُ لخطاب المُتسلِّط يُعبِّر عن ضعف أو نفاق أو مذلة، أمّا التجهم لخطاب الضعيف فقد يُعبِّر عن تجبُّر أو استعلاء. أمّا الإنسان الحُرّ فإنه يسعى دوماً إلى أن يكون تواصله مع الآخرين قائماً على مبدأ راسخ هو المُساواة بين البشر، وحقّهم في أن يُخاطَبوا بطريقة تحفظ كرامتهم وإنسانيّتهم، بغض النظر عن ثروتهم، ومالهم، ومنصبهم، وجاههم، ونفوذهم، وغيرها من مصادر السلطة. فيكون خطاب الإنسان للإنسان محكوماً بكونه إنساناً فحسب، بغض النظر عن أيّة اعتباراتٍ أخرى.

الابتسامة أداة للصمود

كثير من الحروب التي يخوضها البشر تُنجَز عبر الخطاب. لذا شبَّه البشر السجال الكلامي بأنه حرب؛ مستعملين تعبيرات القتل، والتدمير، والنسف، والهزيمة، والحرق لوصف أثر الكلام! وللأسف لم تعد تستوقفنا تعبيرات خشنة، نسمعها بشكل شبه يوميّ حين يفخر أحدهم بما فعله في محاوره مثل القول بأنه: «أفحمه»، «دمّر رأيه»، «نسف حجته»، «ألجمَه»، «قطع لسانه بحجته»، «أخرسه»... إلخ. بالطبع فإن حروب الخطاب خطرة، فالجروح التي تُحدثها حروب الكلام في النفوس غالباً ما تكون مفتتحاً لجروح الجسد التي تُحدثها حروب الأجساد. ولأن البشريّة تبدو بعيدة فيما أظن عن إمكانية إحلال التفاهم والتعاون محلّ حروب الكلام، فإننا بحاجة إلى تطوير استراتيجيّات للصمود في حروب الكلام، ومن أهمّها الابتسام.
تهدف حروب الخطاب التي يتعرَّض لها الأفراد أو الجماعات إلى كسر إرادتهم، وإخضاعهم. يتجلّى كسر الإرادة والإخضاع في التواصُل الفرديّ المُباشر في علامات لغويّة وغير لغويّة، منها الابتسام. فالابتسامة قد تكون علامة خضوع، أو علامة مقاومة وصمود. فللابتسام أشكالٌ متعدِّدة، ودلالات متنوِّعة، تصل حدَّ التناقض. فابتسامة الخجِل الواهِن، تتعارض في شكلها ودلالتها مع ابتسامة المُتحدي الواثق. وعلى المرء أن يُدرك أن ابتسامته أداة من أدوات التأثير والإقناع التي يستعملها لإنجاز أغراضه من التواصُل، لا سيما أثناء حروب الكلام. فالابتسامة أداتنا لمقاومة الخطابات التي تسعى إلى إخضاعنا وكسر إرادتنا وهزيمتنا. وإدراكنا لقوة الابتسامة يُغيِّر من نظرتنا لها، ويجعلنا ندركها بوصفها استجابةً بليغة؛ أي استجابة تمكننا من الصمود في وجه خطابات تبتغي إلجام ألسنتنا، وإخراسنا.

إنّ ابتسامة ثقة في مواجهة خطاب اتهامي كاذب، تحول دون السقوط في قبضة التهاوي، وابتسامة لا مبالاة في مواجهة خطاب ترهيبي، تحول دون الوقوع في شَرَك الهلع، وابتسامة صمود في مواجهة الضغوط تحول دون الانكسار. وليس من المُستغرب أن تكون الابتسامة حاضرة في كلِّ سياقٍ للمُقاومة النبيلة، فقد قدَّم بعض مناضلي الأمم المقهورة أمثلةً رائعة لابتسامات الصمود حين وقعوا في أسر قوى الاستعمار، فواجهوا وحشية جلادي الاحتلال بابتسامات صمود، كانت فاتحة تحرير الأوطان. ولعَلّ قوة ابتسامة الصمود في كونها أداةً مهمَّة لتحقيق وظيفة أخرى هي وظيفة السخرية.

الابتسامة أداة للسخرية

يواجه المرء الكثير من مواقف التواصُل التي تستدعي سخرية مُرَّة أو تهكميّة. فالكذب المفضوح، والنفاق الرخيص، والتلاعب المكشوف قد تربكه ابتسامة ساخرة بأكثر ممّا يربكه نقد صريح. وحين تشيع في مجتمع ما هذه المُمارسات القولية الموبوءة يصبح الابتسام الهازئ استجابةً بليغة تُقاوم هذه المُمارسات دون أن تُعرِّض صاحبها للأذى الانتقامي الذي يتعرَّض له عادةً فاضحوها ورافضوها.
الابتسامة الساخرة تشبه أسلوباً بليغاً هو التورية. في التورية يقول المُتكلِّم شيئاً يبدو عادياً بريئاً في معناه الظاهر، لكن حين يتأمَّله القارئ يكتشف أن له معنى مبطناً، ساخراً ومتهكماً بقسوة. ميزة الابتسامة الساخرة أنها -مثل التورية- تُنجِز أثرها دون أن تُعلن عن نفسها، ويمكن إذا ساءت الأمور بسهولة التنصل منها. لذا كثيراً ما تكون الابتسامة الساخرة أداة الضعيف في مواجهة المُتسلِّط، يستخدمها حين يفقد القدرة على الردِّ الصريح، والتفنيد المُضاد، والنقد المُباشر، والتعليق الآني. ليتمكَّن بواسطتها من الانتقام الآمن من خطاب يفرض نفسه بسلطة القمع لا الإقناع.
من المُؤكَّد أن التعامل مع الابتسامة والتجهم بوصفهما أداتين لمقاومة الخطاب المُتسلِّط، ودعم الخطاب الحُرّ، يمكن أن يُغيِّر على نحوٍ جذري شكل التواصُل في المُجتمعات العربيّة. ولعَلّ هذا المقال يكون فاتحة دراسات متنوِّعة، تفحص الابتسامات التي ننتجها في فضاءاتنا العامة، من هذا المنظور. والأمل معقود بأننا حين نُدرك أن الابتسامة (أو التجهم) قد تكون استجابة بليغة أو غير بليغة، سنحرص على أن تكون ابتسامتنا (أو تجهمنا) بليغاً. لنفتح الباب وسيعاً أمام تأسيس تواصُل إنسانيّ ونبيل.■ د. عماد عبد اللطيف